البيت الرمادي

قصة بقلم الدكتور نعيم عطية

هرعت مسرعا في الصباح الباكر الى شباك التذاكر . ثم أوسعت الخطى الى قطار بور سعيد الواقف على الرصيف على أهبة التحرك . وانزويت في ركن من العربة ومددت بصري الى أعمدة التليفون التي كانت تولي هاربة أمام عيني في رتابة وسرعة ..

وبدا لي من بعيد بيتنا الرمادي ، وفناؤه ذو السور الحديدي ، الذي كنت ألهو في صباي بتسلقه .. وشارعنا الجانبي الهادىء .. الذي كنت أجري فيه بدراجتي .. حتى تبدأ العتمة في الانتشار فأسمع أمي تناديني من الشرفة :

ـ حمدي .. اطلع بقى .. كفاية النهار ده يا حبيبي !

رنا الي البيت الرمادي من بعيد .. وخيل الي أن شرفاته تبتسم لي وتدعوني اليه بعد طول غياب .. أجل بعد ثلاثين عاما لم تطأ فيها قدمي بور سعيد .

وبعد أن وقف القطار مليا في محطة الاسماعيلية دق الناقوس ايذانا بالرحيل .. وتحرك القطار في تثاقل ثم أخذ يتهادى في مشيته.. الى أن استقام الطريق أمامه فمضى يعدو .. كما لو كان يطارده شيطان من الذكريات .

وظل صوت الناقوس يرن في أعماقي .. وتذكرت صوت جرس صغير وقعه في نفسي كطعنات خنجر حاد . وشدتني تلك الاجراس الى اليوم الذي أخذ فيه أناس كثيرون يتوافدون على بيتنا الرمادي .. وجلجل امام الباب الخارجي جرس صغير تهزه يد رجل كئيب رث الثياب يصيح في صوت منغم مقبض : « هنا المزاد .. المزاد النهار ده .. هنا المزاد » .

وبعد أعوام كثيرة فهمت السبب في اننا رحلنا عن البيت الرمادي ، ومن بور سعيد بأسرها ، ولم نأخذ معنا سوى بعض المتاع القليل . وسكنا في العاصمة بيتا صغيرا ، في حي كثير الجلبة والاوساخ .. وكنت أنتظر أبي بجوار النافذة ، واقفا على مقعد خفيض لكي تطول هامتي حافة النافذة المحاذية لافريز الطريق .

وذات مرة لم أطق صبرا ، فما أن سمعت خطواته تنزل الدرجات القليلة الموصلة الى باب شقتنا ويفتح الباب بالمفتاح الاسود الكبير حتى جريت اليه وتشبثت برقبته وانخرطت في نشيج لا آخر له : « امتى ، يا بابا ، نرجع البيت الرمادي .. امتى ؟! » . فانفلتت من مقلته دمعة أحسست بها تحرق خدي .. وأقبلت أمي وربتت على كتفي مواسية .. والتقت عيوننا جميعا مغرورقة بالدموع في فهم صامت عميق .

ثلاثون عاما لم تطأ قدمي فيها بور سعيد .. ثم ها أنا أقترب منها حثيثا وتلفح وجهي نسماتها . ويبدو لي من بعيد البيت الرمادي .. والستائر الخضراء .. والشارع الجانبي الهادىء الموصل الى السور الحديدي ..

فرغت من مهمتي في الساعة الخامسة مساء . وكان قطار عودتي يقوم في الساعة الثامنة .. فأخذت أتسكع في الشوارع كمن يسير في حلم .. وهممت أن أسأل أحد المارة أين يقع الشارع الجانبي .. لكن لساني انعقد .. وتمهلت عند ناصية أحد الشوارع الجانبية .. أحسست انني أنجذب الى الوراء .. الى الوراء .. ثم تسقط من أمام عيني غشاوة .. وبدا لي من بعيد السور الحديدي .

وقفت برهة أتأمله من بعيد في شغف .. ثم هممت أن أمضي في طريقي عندما عبر الشارع صبي من الافريز المقابل .. وعندما رآني توقف . ثم أخذت أضواء مصباح الشارع الغازي تخفت وتلقي بوجهينا في الظلال . وسألته :

ـ أنت ساكن هنا ؟

وأجابني في صوت رقيق كلحن القيثارة : « في البيت الرمادي.. هناك » .

وابتسمت ، وقلت له : « أنا كمان كنت ساكن في البيت ده .. لما كنت في سنك .. البيت ده جدي بناه من اربعين سنة » .

فأجابني : « ده جدي أنا اللي بناه . وأنا اتولدت فيه » .

وابتسمت ولم أناقشه في ذلك ، وسألته :

ـ وانت عمرك كام ؟

ـ عشر سنين .

ان الكبار والصغار يلتقون عادة كقطارين يسيران كل في عكس الآخر .. وعلى قضبان مختلفة .. يختلط صفيرهما .. ثم يتبدد كما يتبدد دخانهما .. ولكنني أحسست انني وذلك الصبي قريبان جدا ومتفاهمان ، وابتدرني سائلا :

ـ انت ساكن في بور سعيد ؟

ـ كنت ساكن فيها .. كنت عايش هناك (وأشرت الى البيت الرمادي) من ثلاثين سنة ..

ـ ياه ، من زمان ؟

أجل ، كان عمره عشر سنوات .. وهي بالنسبة لعمري أنا لا شيء يذكر ..

ـ وساكن فين دلوقتي ؟

ـ في مصر .. انت رحت مصر ؟

ـ أيوه .. انما أحب افضل هنا .. في الشارع الهادي ده .. اتمنى اعيش هنا على طول .

وابتسمت ابتسامة مرتعشة .. وتذكرت اللحظة التي رحلنا فيها من هذا البيت الى .. العاصمة الصاخبة .

ومن قلب الشارع الجانبي .. من احدى نوافذ البيت الرمادي.. ارتفع صوت امرأة ينادي اسما جعل كلينا يجفل . وصرخت في حرقة :

ـ صوت أمي !

ورد علي الصبي :

ـ دي أمي أنا ..

وهرول مبتعدا .. وقلت هامسا : « لك حق .. أمي رحلت من زمان » ..

بدا لي وكان الصبي قد سمعني .. تمهل لحظة والتفت الي .. أحسست كما لو كانت الدموع قد عتمت عينيه .. لكنه ما لبث أن استدار ومضى مبتعدا .

وقفت في مكاني أرقبه يجتاز السور الحديدي ، ويدخل الى لجة من النور الاصفر ، ثم يغلق باب البيت الرمادي من ورائه .. وعم السكون .

ولا أدري كم من الوقت وقفت في مكاني هناك .. بضع لحظات ؟.. أم ثلاثين عاما ؟

تنحنح صوت غليظ الى جانبي وسمعته يقول :

ـ ما فاضلش منه الا شوية الحجار دي .. والسور الحديد ..

واستدرت نحو الخفير كمن يفيق من نوم عميق :

ـ هو ايه ؟

ـ البيت اللي عندك في آخر الشارع .

تابعت عيناي اتجاه اصبعه .. ثم التفت اليه بشفتين مرتعشتين. مسح الرجل شاربه الابيض ، وأردف يقول بصوت كوقع خطوات مبتعدة على أرض صخرية :

ـ العمر بيروح ، يا سيدنا الافندي .. وكل شيء بينهدم .

أحسست كما لو كان قلبي قد هوت عليه قنبلة ثقيلة دكته .. ومضيت أجر رجلي مبتعدا .. محاولا أن أتذكر ما اذا كنت قد قابلت يوما ما عجوزا سألني أسئلة غريبة عن .. عن بيتنا الرمادي .. في بور سعيد .